قاهر البحار

قصة مجلان : أول من دار حول الارض

تلخيص كتاب ستيفان زفيج اعتماداً على الملخص المنشور
في مجلة « ريدرز ديجست » الاميركية

نقله : محمد مسعد لوزي

قاهر البحار

قصة فرديناند ماجلان

أول من دار حول الارض

كانت الرغبة في الحصول على الأفاويه هي الدافع الاول لتلك الاعمال الباهرة . فقد كان طعام الاوربيين طوال العصور الوسطى تافهاً بسيطاً وكانت التوابل التي نراها الآن كثيرة ، غير معروفة في ذلك العهد . والليمون والبطاطس والشاي لم تكن توجد الا في قصور الامراء

الا ان هذه المواد كانت كثيرة في جزر الهند . كان الجميع يعرفون ذلك ولكن . . ما الفائدة ؟ فالطريق غير ميسور ، والقرصان أسياد البحار . وكانت الافاويه واليهارات تباع في أسواق اوربا . ولكن بأي ثمن ! . . فالزنجبيل والقرفة كانا يباعان بميزان الصيادلة ، أما الفلفل الاحمر الصغير فقد كانت حبته تباع بوزنها ذهباً

ولقد كان الدافع الوحيد لتلك الرحلات البحرية التي لن ينساها التاريخ — رحلات كولومبوس ودياز وكابوت — هو البحث عن طريق قصير آمن للتجارة وتمهيداً للحصول على افاويه الشرق التي كان الاوربي يتوق اليها ولا يكاد — لندرتها — يراها في نومه

وعندما نجح فاسكو دي جاما في الوصول الى الهند عن طريق شاطىء افريقية الغربي فحول رأسها الجنوبي سنة ١٤٩٨ بدأ عندئذ النزاع الطويل المستحر بين الدول الكبرى لاستكشاف طرق التجارة واستعمار الشرق . وفي سنة ١٥٠٥ أرسل البورتغاليون أسطولاً لتأسيس مراكز تجارية في جزر الهند وكان فيها فرديناند ماجلان وهو برتغالي شاب في الرابعة والعشرين من عمره . ورجعت سفن ذلك الاسطول بعد ان وصلت الى جزائر ملقا بالقرب من سنغافوره وعلى احداها الشاب ماجلان وقد أصيب بسهم في ساقه . وكان يصحبه عبد سماه « اتريك » فكان له على ما سنرى شأن واي شأن في قصة صاحبنا

تفتحت أمام بطلنا ماجلان آفاق واسعة . أراد أن يصل الى (جزائر الافاويه) بالابحار عن طريق الغرب كما فكر قبله كولومبوس وفيسبوتشي وكورتيز وكابوت . ولكن الفرق بين ماجلان وبينهم أن هؤلاء كانوا يقولون « ربما نجد الطريق . . » وكان بطلنا يقول « أعرف الطريق . . » نجح هو وأخفق الآخرون

تقدم البحار الشاب الى الملك مانويل ملك البرتغال وطلب منهُ في حماسة الشاب ورجاء الواثق بنفسه ان يمنحه اسطولاً ليحقق ما يجول برأسه فرفض . فتقدم ماجلان بالطلب نفسه الى اسبانيا غريمة البرتغال في الاستعمار فوافق ملكها شارلس لا عن عقيدة بنجاح الفكرة ولكن لان حماسة الشاب وسحر الفاظه وعميق ايمانه أخذت بلب الامبراطور فوافق على المغامرة الهائلة . ولكن الصعوبات لم تنته عندذلك ، فان ملك البرتغال تدخل بواسطة قنصله في اشبيلية ليحول دون إبحار ذلك الاسطول بيث الريب والروع في نفوس البحارة . وواجهت ماجلان صعوبات عظيمة بشأن جمع البحارة لتلك الرحلة — رحلة الى آفاق مجهولة قلما يعودون منها . وتمكن ماجلان أخيراً من التأثير في بعض البحارة فانضموا إليه . وكان بين البحارة شاب ايطالي اسمه بيجافيتا من اسرة كبيرة القدر الى ماجلان « ليرى روعة المحيط » كما زعم . ونحن مدينون لهذا الشاب كثيراً فقد كان يسجل حوادث الرحلة في مذكراته التعيسة يوماً فيوماً في اسلوب رصين ممتع . وفي صباح ٢٠ سبتمبر سنة ١٥١٩ وقفت في ميناء سان لوكار باسبانيا خمس سفن عليها ٢٦٥ بحاراً وعلى رأسهم الشاب الاعرج . وبعد ظهر اليوم نفسه نشرت السفن اشرعتها وضربت في عرض البحر باسم الله مجريها ومرساها

***

ولقد كانت أصعب مهمات ربان هذا الاسطول الغريب هو ان يوحّد بين هذه المراكب الخمس الهرمة المتفاوتة السرعة . فصدر امر ماجلان بأن تتجمع السفن عند غروب شمس كل يوم وتقترب من « سفينة العلم » ويحيي الربان بهذه الكلمات :

« ليحمك الله .. أيها السفير الجنرال الربان .. » ثم تفرق بعد تلقي التعليمات في نظام وهدوء . ولقد كان ربابنة السفن الاربع يقترحون ان يكون الهدف في خروج الرحلة وذلك باطلاعهم على الخرائط واشراكهم في المناقشات .. لكن ماجلان رفض ذلك رفضاً قاطعاً . وكان عليهم ان يتبعوا سفينته طول النهار ثم يقتربوا منها عند غروب الشمس ويحيره التحية المعتادة في طاعة الجنود

ولقد كان الطريق المرسوم للرحلة هو جهة جنوب الغرب الى البرازيل ولكن ماجلان اتجه ناحية الجنوب على شاطىء امريكا الغربي . وكان من الطبيعي ان تقدم جوان كارتاجينا ربان السفينة « سان انطونيو » الى ماجلان سائلاً عن سبب تغيير طريق السير . وربما كان غرض ماجلان من ذلك ابتغاء الخير الكثير ان يجد ريحاً موافقة ثم يأمر طريق السير الى جنوب الغرب ولكن كان جوابه على اعتراض كارتاجينا « ليس لاحد ان يطلب مني الانضاء بشيء اليه ! »

ولقد كان من شأن ذلك الرد الحاسم ان غضب كارتاجينا لكرامته ولم يدن من السفينة الاولى عند الغروب لتحية المعتادة . وكان معنى ذلك عند بقية الربابنة انهُ عاد لا يعترف بسلطة

الشاب البرتغالي الاعرج المطلقة . ولكن ماجلان لم يهتم بذلك . وفي اليوم التالي استدعى ربابنة السفن لاجتماع هام بعقد على سفينته وكان بينهم كارتاجينا الذي صمم على الاشتراك والمساهمة في نجاح الرحلة او خيبتها . وكان عزّ على ماجلان ان يخضع لمرؤوسٍ فردٌ عليه ردّاً جافّاً فما كان من هذا الاّ ان أعلن العصيان فبادر ماجلان وأصدر أمره الى مساعده بالقبض على الربان الثائر فلم يسعهُ الاّ تنفيذ الامر . ولقد كانت لسرعة التي اتبعها ماجلان في حسم تلك المسألة وتصميمه على رأيه تأثيرها الكبير في بقية الربابنة فلم يبس أحدهم بكلمة اعتراض . وعند ما وضعت القيود في يدكارتاجينا تقدّم أحدهم بخضوع وطلب من ماجلان الامتناع عن إهانة السجين لانهُ اسباني نبيل . ولم يرَ ماجلان من الحكمة ان يمضي في التسف الى نهايته فرضي بالافراج عنهُ بشرط ان يتعهد لويس دي مندوزا — الذي عهد اليهِ بمراقبة الاسير — ان يجعل كارتاجينا رهن طلبه . وعين ماجلان ابن عمه سكيتا مكان كارتاجينا

واستمرّ الاسطول الصغير يضرب في عرض البحر أياماً وأسابيع بدون أي حدث مهم حتى وصل الى خليج ريو دي جانيرو بعد احد عشر أسبوعاً . ولا بدّ ان ذلك الخليج وتلك الارض كانا عند البحارة منهوكي القوى بمنزلة جنات النعيم . فقد خرج الاهالي من أكواخهم وأخذوا يحيون الاغراب تعلو وجوههم الدهشة ولا يثير منظرهم الريب . وقد أشار بجافيتا الى ذلك في مذكراته الى وخص الاشياء التي ابتاعوها او قايضوا عليها ووصف كثرة الخضروات والفواكه قال :

« وكان الاهالي البسطاء يعطوننا لقاء كل جرس معدني صغير سلة كبيرة مملوءة بالبطاطس ». وأكثر من ذلك رخصاً كانت النساء في جمالهنّ الطبيعي الخلاّب أو كما كتب بجافيتا في براعة « النساء اللائي كان كل ما يعطي أجسادهنّ السمر الجميلة شعور طوال سود كالليل البهيم . . »

قضى ماجلان في تلك الجنان ثلاثة عشر يوماً ثم استأنف السير جنوباً على ساحل البرازيل وفي العاشر من يناير وصلت السفن الى رأس سانتا ماريا فشاهدوا وراءهُ سهلاً رفيعاً تلّ عالٍ سماهُ ماجلان مونتفيدي وكان الخليج الذي نزلوه مصب نهر الربو ده لابلاتا . ولكن ماجلان لم يكن يعلم ذلك فقضى أسبوعين مستقصياً علّهُ يكون منفذاً ينفذ منهُ الى بحار الشرق فخاب ظنهُ عندما تبين لهُ انهُ مصب نهر

اختفت أرض البرازيل المحبوبة واختفت معها أشجار النخيل الهائلة وفواكهها الريّانة . . ونساؤها الجميلات السمراوات . اختفى كل ذلك ولم يعد الرفاق يرون غير الماء الازرق الصافي والسماء الزرقاء المنبسطة والأفق اللانهائي — عادوا لا يرون إلاّ منظراً واحداً لا يتبدل ولا يتغير حتى تملكهم اليأس العميق . . الاّ الشاب الأعرج الذي كان يحدوه الامل ثم يخفت ثم يعاوده ثم يخفت وهكذا دواليك

ومضى الاسطول يضرب في عرض البحر ناحية الجنوب . وفي كل ساعة يزيد شقاء البحارة ونزعهم . فقد صارت الايام قصاراً والليالي طوالاً وتراكم الثلج على أشرعة المراكب وتجمد على حبالها وهبت الاعاصير فتحطمت ساريات ثلاث سفن ... ها قد مرَّ نصف عام على ابتداء الرحلة المشؤومة وليس هناك أمل في الوصول الى الهدف المطلوب

ابتدأ الحمى يدور بين البحارة . لقد أمضوا عقودهم لغرض الوصول الى جزائر الافاويه حيث التوابل والذهب . ولكن اي مصير يخبؤه لهم ذلك الاعرج الصامت المشؤوم ؟

وما زال أسطول الرعب يضرب في عرض البحر ، تتركه زوبعة فيناله أعصار ، تائهاً حائراً لا يدري اي طريق يسلك ، محارباً الامواج والزوابع والثلوج . . محارباً الفشل . . متحدياً الطبيعة . . لاجل الحياة الجزيرة الغالية

وفي ٣١ مارس سنة ١٥٢٠ رأى ماجلان أرضاً ولكنها لم تكن الاَّ جزيرة مقفرة قاحلة . ولم يكن في استطاعة البحارة ان يسيّروا السفن فرسخاً آخر لشدة ما قاسوا وما نالهم من مشقة وتعب . فرأى ماجلان أن يمضي فصل الشتاء فيها . وحبب ذلك الى البحارة ما رأوه في مياه الجزيرة الساحلية من اسماك وفيرة . وسميت تلك الجزيرة سان جوليان

***

ان صبر الانسان له حد معلوم ولا بد ان يمل يوماً فتنفجر العواصف المكبوتة في صدور عمياء جاهلة مدمرة لا تعرف لها حداً من نظام او قانون او عرف . ولم يكن كل بحار (ماجلان) ولم يكن اسمهم شجاعة ماجلان وشبابه ومقدرته وشخصيته وعزمه . ولذلك ما لبث التذمر ان أعلن بعد أن كان يرى على قسمات الوجوه . وكان اكثر المتذمرين ربابنة السفن الاربع فأعلنوا تمردهم وشكلوا تكتلاً (الربان الذي عينه ماجلان) من اسبانة ربابنة آخرين وثلاثين رجلاً مسلحين وهاجموا السفينة سان انطونيو واظلام يلفهم بردائه والرعد يخنق صوت نادتهم فقتلوا ضابطاً وعشرة من عنفه على سارية الركب وسجنوا سكيتا ابن عم ماجلان معلنين حرب الحياة والموت

وأنظر الآن الى ما جرى به الشاب الاعرج

وصل رسله من رجاله المخلصين برسل رأسهم الضابط المسجون إسبينوزا الى السفينة المتمردة ومعهُ خطاب الى لويس مندوزا الذي عينهُ الثوار رئيساً عليهم

وتحاول أن تتصور موقف اولئك الابطال الستة وهم يقتربون بقاربهم الصغير من السفينة المسلحة في ايدي المتمردين . واذا كان اليأس يسلب الانسان عقله ويتركه وحشاً ضارياً في ثوب إنسان ، فان هؤلاء الذين كانوا على ظهر تلك السفينة كانوا في اشد حالات اليأس والتوحش فقد صارت حياتهم جحيماً لا يطاق

هرع القارب الصغير يقترب رويداً رويداً من مركب الرعب حتى وصل اليه والمتمردون ينظرون اليهم من ظهره دهشين ان لم يدر في خلدهم ان ستة رجال في قارب يجرؤون على مهاجمة سفينة كبيرة عليها ستون رجلاً. ولكن رجال ماجلان الشجعان لم يبدوا خوفاً ولا اضطراباً بل صعدوا الى ظهر السفينة يتقدمهم إسينوزا وتقدم من الربان الثائر مندوزا وسلمه خطاب ماجلان بأمره فيه بالحضور الى سفينته

كان الفتح بسيطاً ظاهراً — ذلك ما قاله الربان الثائر وما لبث فمه ان انفتح على نهفة مجلجلة حتى تقلص وانقلبت النهفة الى بحة وعواء فقد طعنه اسينوزا في رقبته طعنة نجلاء لم يلبث بعدها ان سقط يتلوى في دمائه الثائرة

وكما أن ليس في الارض أشجع من الانسان ، فليس فيها أجبن منه ، فهاهم ستة رجال عزل يرمون بأنفسهم بين براثن ستين ثائراً . وها هم أولاء يرون رئيسهم جثة هامدة والدم يتدفق من حلقه والزبد يسيل من بين شدقيه . . فلم يبدوا حراكاً ولم يظهروا أية مقاومة . وانقلب الفهد المتوحش الى هر أليف فرموا بسلاحهم أمام الابطال الستة . ووقف الربانان الثائران كارتاجينا وجاسبار كيسادا أمام الشاب الاعزل المرعب ليدفعوا ثمن ما قدمت أيديهم

ولم يرض ماجلان ان يعاقب جميع البحارة المتمردين فقد كانوا يبلغون خمس مجموع رجاله. وكان جاسبار كيسادا هو الذي قتل الضابط وعلقه على سارية المركب فحسم ماجلان ان يجعله عبرة لغيره وعقدت المحكمة لمحاكمة كيسادا وأتي بالشهود وترافع عنه محاميان من البحارة وسجل الكتبة ما دار في الجلسة وجلس ماجلان في كرسي القاضي واصدر حكمه الرهيب باعدام القاتل

وعرض أمر تنفيذ الحكم على خادم كيسادا وكانت له يد كبرى في الثورة ومني بالعفو عنه فقبل وبشر بقاس بأن طاح برأس رئيسه المتمرد

وفي اليوم التالي أصدر ماجلان حكمه الرهيب الثاني على الثائر الآخر وزميل له . وكان الحكم القاسي يقضي بتركهما وحيدين في الجزيرة القاحلة مع تزويدهما بقليل من الطعام . وليترك تنفيذ الحكم الى ارادة الاله القوي القادر

وما يستحق الذكر من نص الحكم صدر ثانية في نهفة نفسها بعد خمس وسبعين عاماً عند ما ثار أحد الضباط من الرحالة المستكشف الانجليزي فرانسيس دريك فغير هذا الضابط بين الاتجار كجندي شجاع على ظهر السفينة دون أن يقاسي ما قاساه الثائران من قبل . واختار الضابط الشجاع ان يزهق روحه بيده على ارض الجزيرة . وهكذا تخضبت تلك الارض البكر بدماء ثلاثة رجال من قبل . وانتشى صاحب ماجلان عندذلك . وخيل اليه ان حادثة سان جوليان ليست الا عثرة وعبرة . ولم يخب ظنه ، فعندما انتهى الشتاء بزوابعه وأعاصيره أرسل ماجلان

السفينة سانتياجو أحسن السفن وأعزها لديه للاستكشاف في عرض البحر وكان ذلك آخر عهده بها . وتمكن بحارتها من الوصول سالمين الى ارض الجزيرة ورووا لرئيسهم قصة غرقها . ولم يتمالك ماجلان نفسه وتتثنى تنوحت عيناه الدموع

وفي ٢٤ اغسطس سنة ١٥٢٠ اصدر أمره بالاقلاع من سان جوليان المشؤومة . ولم يئس رغم ذلك ان يرسل نظرة حائرة الى من حكم عليهم أفظع حكم نطقه به قاض

تكون بذلك قد رويا للقارىء تاريخ اثني عشر شهراً من أعظم اعمال الانسان بطولة وشجاعة . سنة كاملة مرت منذ أن اقلعت السفن الخمس من سان لوكار وعليها رجال يحلمون بالثروة والغنى والوصول الى (جزائر الافاويه) وعلى رأسهم شاب أعرج شجاع . سنة كاملة مرت على بطلنا ماجلان .. لم يكتئب شيئاً ولم يرجع شيئاً .. بل حصر وحسر .. يحارب الطبيعة القاسية .. يحارب اليأس يحارب شيطان الضعف في نفسه . قالى متى ينتهي هذا الصراع البشري ..؟

ولو علم ماجلان وقتئذ انه اصبح قاب قوسين او أدنى من النهاية لقضي عليه من الفرح . فقد توالت عليه المحن متوالية متتابعة في غير رحمة او هوادة حتى كاد ييأس من الوصول الى نهاية الرحلة . ولكنه كان شاباً ذا أمل

وتشاء الاقدار أن تصيبه بضربة اخرى أشد قوة وقسوة . ففي يوم ٢١ اكتوبر رأى جزيرة اخرى قاحلة وارتأى أن يستريح بسفنه جوارها بضعة أيام . وأرسل السفينتين سان انطونيو وكونسبسيون لاستكشاف شاطىء الجزيرة على طوله . وهب اعصار في المساء حتى كادت ان تحطم سفينة ماجلان نفسها بين الصخور . وكان نفس القضاء لابد حالاً بالسفينتين الاخريين . وبقي ماجلان ومن معه من البحارة على شاطىء الجزيرة منتظرين مترقبين بقلوب هالعة جازعة . وخيل اليه ان الاقدار تضحك منه وانها حكمت عليه نفس الحكم الذي اصدره على البحارين المتمردين . وبعد اربعة ايام من الانتظار الرهيب ظهرت السفينتان في عرض البحر تختالان فوق الماء تيهاً وزهواً . لم يصدق ماجلان عينيه ولكن الدوافع التي كانت تطلقها السفينتان باستمرار لم تترك لذلك سبيلاً الى قلبه . ولكن — تساءل ماجلان — لم تطلق السفينتان البارود الثمين هكذا بسخاء ؟

كانت السفينتان العزيزتان تحملان أخباراً سارة لبطلنا اليائس . فقد هبت العاصفة المروعة عليهما وقطع كل أمل . فالريح العاصفة تدوي من الخلف وتدفعهما ناحية الصخور الهائلة أمامهما . وعلى حين فجأة ، وكأنما ذلك عمل ساحر ، رأى ربان سان انطونيو ممراً صغيراً بين الصخور فاحتمى فيه ولحقته السفينة الاخرى . وكان في ذلك النجاة . ومع انهما لم يجدا المخرج الغربي لهذا الممر الا ان البحار كانوا على ثقة بأنه ضيق

وتقدمت السفن الاربع وعلى ظهر الاولى ماجلان باضطراب ورهبة من الممر السحري الذي كان على أكبر جانب من الخطورة فان أقل خطإ كان يودي بالسفن ويحطمها على الصخور ولم يمس بطنا أن يطلق على ذلك المرا اسم «تودوس لوس سانتوس» وهو يعرف الآن بمضيق ماجلان . وظلت السفن تتقدم ببطء في ذلك الطريق الضيق ولم يعلم أحد الى أين يفضي بهم وبعد شهر من الزمان من التعب والمشقة والخطر في اجتياز مضيق يعد اجتيازه من معجزات الملاحة على من عرفه فكتب بك على مكتشفه، خرجت السفن سليمة من طرفه الآخر الى عرض المحيط الواسع فبكى الشاب الاعرج وتساقطت دموع الفرح والتأثر غزيرة على ثغر ذقنه الطويل الكث

لم يكن فرح ماجلان لانهُ وصل الى غرضه بل لانهُ عرف الطريق الذي يسلكه بعد ذلك. وقد كان طريق الرجوع الى الوطن من ناحية المحيط سهلاً ميسوراً . هنا وقف ماجلان يتنازعهُ عاملان ، هل يترك المهمة الكبيرة ويرجع الى الوطن المحبوب ، او يمضي في رحلته الى النهاية ؟

استدعى ماجلان ربابنة السفن الاخرى لاستطلاع رأيهم في ما لديهم من الطعام المخزون . ثم بسط لهم حقيقة الامر في أسلوبهِ الساحر وحماسته المتوقدة . لقد حقق الجانب الاول من هدفهم فهل يمضون الى النهاية ؟ ولكن التخيل شيء والحقيقة شيء آخر . ولم يكن من المعقول ان يتوقع ماجلان من زملائهِ موافقته على المضي في تلك الرحلة المرعبة . وفعلاً عارض أحد الربابنة رئيسهم وكان أكثرهم تشبثاً برأيهِ استانو جوميز ربان السفينة سان انطونيو الجديد . وكانت هناك حقيقة مرَّة يعلمها ماجلان وهي نقص المؤن نقصاً ينذر بالخطر

وكان رأي جوميز انهُ اذا أتتهم الاقدار فانهم سيموتون جوعاً ولا ريب . وهو رأي تؤيدهُ الوقائع . الاَّ ان ماجلان كان أكثر اهتماماً بعمل عظيم خالد منهُ بحياته الفانية ولذلك عزم على المسير وأصدر الامر الى ربابنة السفن بان يخفوا عن البحارة قلة المؤن

وأرسلت سفينة بقيادة جوميز بعد ذلك لاستكشاف فرع من فروع المضيق ومضى الوقت المعيَّن لذهابها وايابها ولكنها لم تعد ، فقضى ماجلان أياماً في البحث عنها على غير جدوى واخيراً استنتج انها أرسلت في أثر جوميز بعد أن أنكر النجم أقوال مثيري التقدم والكرس فقال لجلان ان السفينة عادت الى أسبانيا

هنا واجه ماجلان موقفاً حرجاً وتعين عليهِ ان يصدر قراراً خطيراً ذلك انهُ كان يعلم ان السفينة الناكصة ، كانت تحتوي على معظم مواد الغذاء ، فالسير في الرحلة كان بمنزلة الانتحار . ولكن . . . .

وفي ٢٨ نوفمبر سنة ١٥٢٠ رفعت الثلاث سفن الباقية أشرعتها ضاربة في عرض المحيط المجهول ناحية الغرب

« . . وهناك في مكان بعيد وراء الأفق لا بد ان تقع جزائر الاقاويه . . جزائر الذهب والثروة . . » كذلك قال ماجلان في نفسه . « ولا بد أن أجد بعدها بلاد التوابل الخصبة ثم هندوستان . . وبعدئذ . . وبعدئذ . . هناك في أقصى الأفق لا بد أن أصل ثانية الى أسبانيا العزيزة . . . . »

واختلج بدن بطلنا الكبير من التأثر وسقطت دمعة كبيرة على وجهه الاسمر الطويل الشاحب وأطلقت السفن الثلاث مدافعها تحية للمحيط الذي أخذت تخترق عبابه وهي لا تعلم مصيرها فيه

***

ويعتبر أول اجتياز لهذا المحيط المجهول من أبهر أعمال الملاحة التي سجلها التاريخ للانسان ولقد قيل عن رحلة كولومبوس أنها عمل فذ من أعمال البطولة مع ان سفنه كانت جديدة متينة ولم تزد الرحلة ذهاباً على ٣٣ يوماً . وكانت سفنه وافية الزاد في وسعه الرجوع الى الوطن اذا ثبت عجزه عن الوصول الى غايته

وها هو ذا الشاب الاعرج وها هي ذي رحلته الحمقاء . ها هو ذا ماجلان يتجه باختياره الى فضاء لا يسلم له آخر مع بحارة يائسين هالكين يحرمهم الحرمان ويهددهم الجوع الذي لا يرحم . ها هو ذا ماجلان يرمي بنفسه في يد القدر وسط المحيط الهائل في ثلاث سفن هرمة هالكة تكسرت اشرعتها ووهنت حبالها تلك هي رحلة ماجلان . ولما استكملت بعد . . .

وسارت السفن تضرب في عرض المحيط الهائل اللانهائي . ومرت اربعون يوماً ثم خمسون ثم ستون ثم مائة . . ولا أرض ولا أمل في بلوغ أرض . ولم يكن ماجلان قد قطع أكثر من ثلث ذلك المحيط الهائل الذي سماه « الباسيفيكي » أي الهادىء لانه كان هادئاً حقاً

وكان المحيط حقيقة هادئاً ولكنه كان مرعباً . فالماء الازرق لا يتبين في لونه وانقضاء المتسع لانهاية له . والسماء الصافية لا تتسحب بالغيم في وسطها ترسل شمسها نارا . وتحلت وجوه الرفاق وغارت عيونهم في محاجرها جوعاً وتيبست شفاههم واصبحت السفن الثلاث تحمل فوق ظهورها أشباحاً متحركة وأصبح كل شيء منها مثلاً حياً للبؤس والفزع والجوع

والطعام . . كان لا يزال موجوداً ولكن . . في نظام ! . . فلم يعد الطعام بل غدا أسمى أشياء الحياة المستقبلات وانهرك . والخبز تعفن وتحلل وصارت ترعى فيه الديدان والسوس . . الفئران اصبحت من الطعام المفضل وغدت تطارد في كل الجوانب . وأكل الرجال نشارة الخشب وجلود احذيتهم بعد ان سكنوا صرخات الجوع القاسية في معدهم . ومات من البحارة الباقين مع ماجلان عشرة وأشفق الرب أخيراً على ابنائه وشملهم برحمته ففي السادس من مارس سنة ١٥٢١ رأى ماجلان جزائر اللصوص فرسا وانقرب منها في حذر وأحاطت به قوارب

الاهلين ملوحين بسعف النخيل ولكن الاسبانيين الهالكين لم يفهموا تلك التحية بل كان الطعام كل همهم . فنزل اربعون منهم مسلحين وحرقوا أكواخ الاهلين الآمنين وسرقوا ونهبوا كل ما صادفهم في طريقهم . واستراح البحارة ثلاثة أيام أكلوا فيها فواكه وأسماكاً وشربوا ماء عذباً. وفي صباح اليوم الرابع نشرت السفن أشرعتها وعاودت الرحلة اللانهائية

وصادفت السفن في طريقها عدة جزر أخرى متقاربة سماها ماجلان جزر الفيلبين وهي الجزائر التي دخلت ضمن أملاك الامبراطور شارلس وقد بقيت في حوزة أسبانيا مدة أطول من جميع البقاع التي كشفها باسم اسبانيا كل من كولومبوس وكورتيز وبيزارو

وفي ٢٨ مارس وصل ماجلان الى جزيرة مازافا حيث رحب به ملكها كالامبو واستضافه عدة أيام وزوده بمؤن كثيرة وأخبره ان أقرب الجزر اليه هي جزيرة زيبو فأبحرت السفن متجهة اليها

هنا دهش ماجلان عند ما رأى عبده « انريك » يفهم بعض ما يقال له سكان مازافا فعلم انه انتهى من تطويق الارض ، وان انريك أصح في منطقة كان ماجلان قد بلغها اولاً في رحلته الاولى شرقاً . وبعد مسيرة نصف يوم وصل ماجلان الى جزيرة زيبو . وكان أول ما فعله ان أطلق جميع مدافع المراكب دفعة واحدة فأرعب الاهالي وأظهر ملكهم الذي دعاه ورجاله الى وليمة كبيرة فيها استعداده لتبادل المتاجر معه . ولقد توطدت الصداقة بين ماجلان والراجا حتى ان الاخير أعرب عن رغبته في اعتناق الدين المسيحي . وفي حفل كبير وطني اجتمع الراجا ورؤساء القبائل وقدموا الطاعة الى ماجلان باسم أسبانيا ودخلوا والاهلون في دين الله أفواجاً

وخيل الى ماجلان ان النجوم قد انحازت الى صفه وان السعد أصبح رفيقه وان النجاح اصبح اليه قاب قوسين او أدنى

وكانت بالقرب من زيبو جزيرة أخرى اسمها ماكاتان كان يذهب اليها البحارة في قوارب ويطاردون النساء الوطنيات ويحرقون أكواخهم أثناء الصدام . ورأى ماجلان ضرورة اظهار بطشه لاهالي تلك الجزيرة فصمم على ان يلقنهم درساً قاسياً . ولقد أظهر ملك زيبو استعداده لارسال الف محارب مع ماجلان ولكن هذا رفض وأخذ معه ستين بحاراً مزودين بالبنادق

كان موقع جزيرة ماكاتان محصناً بالصخور من حواليها وذلك كان اقتراب القوارب منها لا يخلو من خطر . وركب ماجلان الزوارق مع رجاله وأخذ يقترب من الجزيرة واستعد الاهلون للقتال . وعلى رأسهم ملكهم مزودين بالسهام المسمومة والنبال . ولندع بيجافيتا يقد كان من ضمن المحاربين يصف لنا المعركة :

« عندما رأى الاهالي المتوحشون ان بحران البنادق في الزوارق طالت لا تحمينا هجموا علينا هجمة رجل واحد بقسيهم ونبالهم حتى ساد الاضطراب بين صفوفنا وانقلب هجومنا الى دفاع . ثم

أصيب القبطان بقبل مسموم في ساقه افقدته عن الحركة وهرب بقية البحارة شذر مذر ولم يبق بجانبه الا خمسة رجال . ولقد ازداد توحش المحاربين عندما رأوا القبطان طريح الارض تحولوا بجموعهم ناحيته قصد التنكيل به وتحقق ماجلان من الخطر المحدق به فتناسى آلامه وجروحه وقام يعدو صوب الشاطىء والدم يزف من ساقه والسهام تتساقط حواليه حتى وصل الى الشاطىء سالماً . ولكن لم تلبث نبلة ان اخترقت فخذه فوقع في الماء في وجهه وهجم عليه عشرات منهم بحرابهم وسهامهم وظلوا يطعنونه حتى تبلهل جسمه وزهقت روحه . . »

وهكذا مات البطل العظيم افظع ميتة . مات ولم يحقق امله الذي وقد وعاش وتعرب وقاسى لأجله . مات قبل ان يصل الى نهاية الرحلة وقد صار منها على قاب قوسين . مات ولم يرجع ثانية الى بلاده المحبوبة ولم ير الفخار والعزة التي كانت في انتظاره . . بل ان رجاله عجزوا عن استرداد جثة رائدهم وزعيمهم ! . .

***

لم يبق من البحارة وقتئذ الا ١١٥ بعد ان كانوا في بدء الرحلة ٢٦٥ فاضطروا ان يشعلوا النار في أحد المراكب ويغرقوه لقلة عددهم . واخذ سباستيان دل كانو مكان ماجلان ولكن هيهات ان يملأه . وسارت السفينتان الباقيتان ترينيداد وفكتوريا جنباً الى جنب تأهبين وسط المحيط الهادىء مدة ستة اشهر . وما زال القدر الغاشم يعبث بهما فما لبثت ان قامت عاصفة هوجاء ففرقت ترينيداد وعليها ٥١ رجلاً

واخيراً وصلت السفينة الباقية فكتوريا الى جزائر ملقة ، جزائر الافاويه والزوة بعد اسبوعين حيث اكرمهم الاهلون كثيراً ولبثوا فيها بضعة اسابيع وهم لا يكادون يصدقون ان تلك الرحلة الرهيبة قد انتهى نصفها . وحملوا السفينة كل ما تستطيع حمله من توابل وبهارات وابتدأ الشق الثاني من الرحلة — شق الطريق الى الوطن

***

ولقد كانت رحلة السفينة فكتوريا حول النصف الجنوبي من الكرة الارضية — بعد أن اتمت الرحلة حول نصفها الشمالي في ثلاثين شهراً — من اعظم اعمال الملاحة البحرية التي قام بها الانسان في كل العصور

وأخذت السفينة فكتوريا تمضي بحملها الثمين فوق مياه المحيط في طريقها الى الوطن الغالي وأعيدت المأساة مرة اخرى . فقد فسدت المؤن وتلفت لشدة الحر ووقع البحارة مرة اخرى فريسة الجوع القاتل . ولم يكن في وسعهم ان يأكلوا الفلفل الاحمر بدل الطعام او جوز الطيب بدل الخبز . واخذت حيتان البحر تتبع السفينة متلقفة ما يرمى من الجثث في البحر

وفي ٩ يوليو سنة ١٥٢٢ وصلت السفينة الثالثة الى سنتياجو في جزائر الرأس الاخضر (كاب فرد) التي كانت تابعة للبورتغال . وكان ذلك بعثاً جديداً لهم فأخذوا كفايتهم من المؤن وواصلوا الرحلة

ولم يكن قد بقي من السجين رجلاً الذين اشتروا من جزائر الفلبين الا ثمر يعد على اصابع اليدين فكان عليهم ان يبذلوا جهود الجبابرة لتسيير المركب بحملها الهائل

وفي ٤ سبتمبر سنة ١٥٢٢ وصلت السفينة الى رأس سان فنسنت في أقصى الغرب من البرتغال وبعد يومين وصلوا الى سان لوكار حيث بدأوا الرحلة قبل ثلاث سنوات وخلت ورما الرجال بأنفسهم على الشاطئ، يقبلون أديم الارض ويغفرون بتراب الوطن وجوههم

وفي صباح اليوم التالي أبحرت السفينة فكتوريا نقطة سيفيل متجهة الى أشبيلية . وعند وصولهم اليها صاح الربان ان « أطلقوا المدافع جميعاً ! »

وكما أطلقوها مودعين الوطن قبل ثلاث سنوات ، وكما اطلقوها عند مرور ماجلان محيط الهادي ،وكما أطلقوها مرة ثالثة ورابعة محيين جزائر الفلبين ، أطلقوها مرة أخيرة محيين الوطن العزيز.ولم يكن لصوت البارود في آخر مرة شبه في المرات السابقة ولم يكن يعادله صوت الموسيقى الشجية والرقاق يخفون بين دويها :

« لقد عدنا . . لقد عملنا ما لم يعمله احدٌ من قبل . . لقد دورنا حول العالم »

واجتمعت ألوف من الناس ليشاهدوا الاعجوبة وليروا السفينة المباركة وشعثها الهائل وبحارتها الذين صيرتهم أهوال الثلاث السنوات شيوخاً هرمين

وكان اول ما عمل اولئك الابطال عند مانزلوا أرض الوطن في أشبيلية ان ساروا معاً واحداً في خرقهم البالية الى بيت الله حيث ركعوا خاشعين شاكرين مترحمين على رئيسهم البطل ورفاقهم الشجعان

وبلغت اخبار تلك الرحلة جميع انحاء اوربا ولم يدهش العالم (المعروف وقتئذ) اربعة بحدث بعد رحلة كولمبس اكثر من دهشته لتلك الرحلة . اعجابه بأبطالها . . . . الذين ادركوا في ذلك الوقت وصدق الجميع ان الارض كروية

***

ولن ينسى التاريخ ماجلان اول بحار اخترق ممر ماجلان . لن ينسى التاريخ ذلك الشاب الاعرج الذي برهن للعالم الى اي مدى يصل بالانسان عزمه . ماجلان الذي اصبح المثل الاعلى للشجاعة الخارقة والعزم الراسخ. ماجلان الذي مات قبل ان يرى ثمار عمله . ويرى رأسه مكللة بأكاليل الغار